دراسة عن ظهور الأزجال وتطورها

نصر الدين، بي بي
باحث الدكتوراه في كلية أم إي أس ممباد

د. عبد الله نجيب
الأستاذ المساعد في الكلية العربية سلم السلام

الأندلس (Al-Ándalus) بلد من أوروبا, هي التسمية التي تعطى لشبه الجزيرة الأيبيرية في فترة ما بين أعوام ٧١١ و ١٤٩٢ التي حكمها المسلمين. وهي تمثل إسبانيا في الوقت الحالي. إن جنوب الأندلس جمهورية فرنسا و شمالها البحر الأبيض المتوسط. وقد أنشأ العرب والمسلمون بالأندلس على ما يزيد عن ثمانية قرون من الزمن حضارة عرفت بحضارة الأندلس، وكان الأدب العربي أحد روافدها الذي يعد أثرا من آثار البيئة الأندلسية، يتفاعل معها وتتفاعل معه. وقد تقلد الأدب الأندلسي بعد الفتح الإسلامي تقليدا للأدب المشرقي، بحيث استطاع أهل الأندلس أن يبتكروا نمطا جديدا من الشعر، له بناؤه الخاص، ولغته المتميزة، وإيقاعه المختلف، فأحدث الأندلسيون فنّين جديدين، هما الموشح والزجل الذان انتقلا إلى المشرق.

تعريف الأزجال

الزجل لغة واصطلاحا:إ ن الرجل في اللغة الصوت، و يقول العرب عن الحمام زاجلا لصوته الرخيم. قال ابن منظور في "لسان العرب": "إن الزجل بالتحريك اللعب والجلبة ورفع الصوت وخص به التطريب"[١] وقال في "العاطل الحالي" للحلي قوله: والزجل في اللغة الصوت، يقال سحاب زجل، إذا كان فيه الرعد، ويقال لصوت الأحجار والحديد والجماد أيضا زجل.[٢]

١ الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور للدكتور محمد عباسة نقلا عن لسان العرب

٢ الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور للدكتور محمد عباسة نقلا عن العاطل الحالي لصفي الدين الحلي

قال الشاعر

مررت على وادي سياث فراعني به زجل الأحجار تحت المـــعاول
تسلمها عبل الذراع كأنـــما جنى الدهر فيما بينهم حرب و ائل

وبناء على ذلك، نرى أن الزجل في اللغة هو الصوت باختلاف مصادره، وقد يكون مختصا بنوع من الغناء كما جاء في "لسان العرب". ولعلهم اقتبسوا لهذا النوع من النظم اسم الزجل لمطاوعته الغناء وقدرة الناس على التغني به وقيل في سبب تسمية هذا النوع زجلا: "لأنه لا يلتذ به وتفهم مقاطع أوزانه حتى يغنى به ويصوت.[٣] قال شوقي ضيف " إن معنى الزجل التطريب و قد سمى به الأندلسيون الفن الشعري العامي المقابلة للموشحة" [٤]

والزجل في الاصطلاح "ضرب من ضروب النظم يختلف عن القصيدة من حيث الإعراب والقافية كما يختلف عن الموشح من حيث الإعراب" [٥]. أطلقه الأندلسيون على شعرهم العامي و انتشر في القرن الثاني عشر الميلادي

وأول من درَس فن الزجل من القدامى حسبما وصل إلينا من مصادر، صفي الدين الحِلي (ت ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م) في كتابه "العاطل الحالي والمرخص الغالي" الذي درَس فيه فن الزجل كما تطرّق إلى بعض الفنون الأخرى. وقد ألف بعده ابن حجّة الحَموي (ت ٨٣٧ هـ - ١٤٣٣ م) كتاب "بلوغ الأمل في فن الزجل" الذي حذا فيه حذوَ الحِلي

رأى المستشرق الإسباني "ريبيرا" أن صورتها لا تختلف في شيء عن صورة الموشحة من حيث الأقفال والأغصان, قرنها بها في نشأتها منذ أواخر القرن الثالث الهجرى قائلا إنه نشأ حينئذ طراز شعرى شعبي تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية متخذا صورتين هما الموشحة الفصيحة و الزجل السوقي, و يخبرنا ابن سعيد أن ابن الدبّاغ الأندلسي قد ألّف كتابا سمّاه "ملح الزجالين" [٦]

إن أصول الزجل ترجع إلى الأندلس كالموشح و أميره أبو بكر بن أبي قزمان قال

٣ المصدر نفسه
٤ تاريخ الأدب العربي لدكتور شوقي ضيف
٥ الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التورنادو للدكتور محمد عباسة
٦ تاريخ الأدب العربي لدكتور شوقي ضيف

بعض يعود أصله إلى جزيرة العرب قبل الإسلام . إن الزجل و الموشح من وليد الأندلس و كما ذكرنا إن الزجل كالموشح إلا في البعض و نرى أكثر أجزاء الزجل في الموشح أيضا بل إن الزجل تفرع من الموشح فعلينا أن نفهم أولا عن الموشح و أجزائه

يقول الزمخشري: "الموشح أو الموشحة من الإشاح والوشاح، و هو حلي النساء أو كرسان من لؤلؤ و جوهر منظومان محالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر لتتزين به المرأة، أو هو سير منسوج من الجلد يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها و كشحيها و قد وضع منظومته على شكل الوشاح"[٧]

قال ابن سناء الملك "إن الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص "[٨] و قال محمد بن أبي شنب "إن الموشح قصيدة منظومة للغناء "[٩]

كان بدء ظهورها في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠ هـ), يقول ابن سعيد: "ذكر الحجاري في كتاب المسهب في غرائب المغرب أن المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني و أخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب "العقد"و لم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر و كدست موشحاتهما"

قال ابن خلدون " و أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم ، و تهذبت مناحيه و فنونه ، و بلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا ، و أغصانا أغصانا، يكثرون منها و من أعاريضها المختلفة، و يسمون المتعدد منها بيتا واحدا، و يلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان و أوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة، و أكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات، و يشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض و المذاهب، و ينسبون فيها و يمدحون كما يفعل في القصائد"[١٠]

و رأى ابن سناء يبنى الموشح على أوزان تختلف عن أوزان الخليل: مع أنه يقر في موضع آخر أن الموشحات تتقسم إلى قسمين الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب، و الثاني مالا وزن له فيها" أي أنه يوجد قسم منه لم يخرج عن أوزان الخليل[١١] . و يسمي

٧ د. نميش أسماء، أطروحة , الموشحات والأزجال وأثرها في الأدب الأوروبي القديم : شعر التروبادور أنموذجا

٨ الجامع في تاريخ الأدب العربي لحنا فاخوري

٩ الجامع في تاريخ الأدب العربي لحنا فاخوري

١٠ تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ

١١ د. نميش أسماء، أطروحة، الموشحات والأزجال وأثرها في الأدب الأوروبي القديم: شعر التروبادور أنموذجا

ابن بسام في ترجمته لعبادة بن ماء السماء مخترعها خطأ باسم "محمد بن حمود القبرى الضرير"، [١٢]

أجزاء الموشحات

و يتكون الموشح من أجزاء و لكل جزء من هذه الأجزاء اسم يميزه عن غيره و لمعرفة هذه الاجزاء نقوم بتحليل هذه الموشح القصير لابن مهلهل في وصف الطبيعة

النهر سلّ حساما على قدود الغصون (مطلع)
و للنسيم مجال (دور)
و الروض فيه اختيال(دور)
مدّت عليه ظلال (دور)
و الزهر شقّ كماما وجداً بتلك اللحون (قفل)
أما ترى الطير صاحا (دور)
و الصبح في الأفق لاحا (دور)
و الزهر في الروض فاحا (دور)
و البرق ساق الغماما تبكي بدمع هتون (خرجة)

يتكون الموشح من عدة أجزاء مختلفة؛

١. منها المطلع (المذهب) هو المجموعة الأولى من أجزاء الموشح في حين أن مطلع القصيدة هو البيت الأولى منها. لا يشترط أن يكون لكل موشح مطلع, فإذا ابتدئ الموشح بالمطلع سمي تاما، فالموشح يخلو أحيانا من المطلع فيسمى المطلع أقرعا و لم ينظم الأندلسيون الموشح الأقرع إلا نادرا، يتكون عادة من شطرين و أكثرها ثمانية أجزاء
٢. الدور هو المجموعة التي تلي المطلع و يبلغ عددها عادة من ثلاثة إلى خمسة أجزاء و قد يفوق ذلك
٣. السمط: هو كل شطر من أشطر الدور،و قد يكون السمط مكونا من فقرة واحدة
٤. القفل: هو مايلي الدور مباشرة و يسمّى أيضاً مركزاً، و هو شبيه بالمطلع في الموشح التام من جميع النواحي أي أنه شبيهه في القوافي وعدد الأغصان وليس

١٢ تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف

الموشح مشروطا بعدد ثابت من الأقفال

٥. البيت:و هو في الموشحة غيره في القصيدة ، فالبيت في القصيدة معروف أما في الموشحة فيتكون البيت من الدور مضافاً إليه القفل الذي يليه

٦. الغصن: هو كل شطر من أشطر المطلع أو القفل أو الخرجة و تتساوى الأغصان عدداً وترتيباً وقافية في كل الموشحة و قلّما يشذ الوشاح عن هذه القاعدة، و يجوز أن تتفق قافية الغصنين ويجوز أن تختلف، على أنه من المألوف أن تتكون أقفال الموشحة من أربعة أغصان

٧. الخرجة: هي آخر قفل في الموشح ، تقع في آخر الموشح و تشكل مع مايسبقها من أقفال أجزاء أساسية في بناء الموشح و لولا الأقفال و الخرجة لا يمكن أن تسمى المنظومة موشحاً.

فأما إذا نظرنا إلى الأزجال فكما ذكرنا أن الزجل ضرب من ضروب النظم يختلف عن القصيدة من حيث الإعراب و القافية كما يختلف عن الموشح من حيث الإعراب . إن الزجل فن ثان الذي يمثل الأندلسيون في المستحدث بعد الموشحات فالزجل وليد الأندلس كالموشح فبدأ من الأندلس و دخل إلى البلاد المغربية و المشرقية حتى انتشر في العالم العربي إلا أن بعض الباحثين من عرب و مستشرقين يرون عكس ذلك[١٣] . و كل ذلك ظهر بسبب التعدد الثقافي الذي عرفته الأندلس

قال محمد عباسة و قد قال أكثر المورخين على أن الموشح أسبق من الزجل، و منهم ابن خلدون الذي قال: "و لما شاع التوشيح في أهل الأندلس، و أخذ به الجمهور لسلاسته، و تنميق كلامه، و تصريع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله و نظموا في طريقته بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيه إعرابا، و استحدثوا فنا سمّوه الزجل و التزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، و اتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة " . و يتضح من كلام العلامة ابن خلدون أن الزجل الأندلسي نشأ تقليدا للموشح.[١٤]

إن الزجالون الأندلسيون الأوائل فقد ظهروا في أواخر القرن العاشر الميلادي، غير أن أزجالهم سقطت ولم تحظ باعتراف المؤرخين القدامى، شأنها في ذلك شأن الموشحات

١٣ د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي. - ص.٤٥٤

١٤ عباسة محمد، اللهجات في الموشحات والأزجال الأندلسية، مجلة إنسانيات

في بداياتها، فنسيت أسماؤهم بعد ما ظن المؤرخون أن هذا النوع من الفن هو من الموشحات الملحونة، لأنهم كانوا يعرضون عن تدوينه.

لم يصل إلينا من زجل المتقدمين إلا ما يعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، و هو زمن ملوك الطوائف، فكان الزجل في هذا العصر قد اتضحت معالمه الفنية، أما الأزجال الأولى فقد كسدت و وقع لها ما وقع للموشحات في القرنين التاسع و العاشر الميلاديين. و في القرن الثاني عشر الميلادي ازدهر فن الزجل بسبب تذوق المرابطين لهذا النوع من الشعر و ليس لنفورهم من اللغة الفصحى كما ذهب بعض الباحثين العرب[١٥]

أما العناصر التي يتكون منها الزجل فهي العناصر نفسها التي سبق إليها الوشاحون شكلا واصطلاحا في موشحاتهم، و هي المطلع والبيت والقفل والخرجة. و غالبا ما تكون الخرجة في الزجل بلغة فصيحة حسب ما وصل إلينا من أزجال، لأن الزجل ينظم بلغة غير معربة أو ما يشبهها، و لا بد من تمييز الخرجة منه، و لذلك يلجأ الزجال إلى نظمها بالفصحى , ثم إن في تسمية بعض الأركان فرق بين الزجل و الموشح , فسموا الزجل ذا المطلع زجلا مسلسلا و بدونه زجلا زريابي

و يمكن لنا أن نرى بعض الأشطار من زجل ابن قزمان تكاد تكون كلها عجمية أحيانا، أو تشاركها ألفاظ عربية و أندلسية محلية. كأن يصور في زجل من أزجاله، حوارا بينه وبين رومية، يسائلها بالعربية فتجيبه بالعجمية. و كان أبو بكر بن قزمان يستعذب بعض الألفاظ العجمية في أزجاله. و لهذا السبب أوهَمَ بعض المستشرقين بأن الزجالين أخذوا مقطوعات من أغان عجمية، وبنوا عليها أزجالهم.

اختلفوا في مخترع الزجل، فقال البعض إن مخترعه ابن غرلة استخرجه من الموشح، و قيل مخترعه أخطل بن نمارة و هذا ما قال صفي الدين الحلي و لم يبق لنا من الأزجال إلا ديوان ابن قزمان و بعض أزجال الآخرين، و لعل سبب اختلافهم فيمن اخترع الزجل عدم اهتمام مؤرخي الأدب بالزجل عند ظهوره لأول مرة في الأندلس, لم تشتهر الزجل إلا في عهد ابن قزمان

بعض أشهر الزجالين : أبو بكر ابن قزمان ولد ٤٨٠ هـ توفي ٥٥٥ هـ ١١٦٠ م و أخطل بن نمارة و ابن راشد و مدغليس و إبراهييم بن سهل الإشبيلي و أبو بكر بن صارم

١٥ الأهواني، عبد العزيز : الزجل في الأندلس.- القاهرة، ١٩٦٧.- ص.٥٥. وانظر أيضا، عتيق، عبد العزيز : الأدب العربي في الأندلس.- بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٦، ص. ٩٨

و أبو الحسن الشستريي و أبو عبد الله اللوشي و الحسن بن أبي النصر الدباغ و ابن الزاهر(أبو عمرو الزاهر) و ابن مرتين و أبو الحسن المقري و أبو بكر الحصار

أهم أغراض الزجل: الغزل و الخمريات و وصف الطبيعة و المدح و الأغراض الدينية و الصوفية و الرثاء هو قليل و الهجاء و الحسن بن أبي النصر الدباغ

المصادر و المراجع

١. حنا فاخوري , الجامع في تاريخ الأدب العربي , دار الجيل , بيروت
٢. عمر فروخ , تاريخ الأدب العربي , دار العلم للملايين , بيروت
٣. د. شوقي ضيف , تاريخ الأدب العربي , دار المعارف , القاهرة
٤. د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي.- القاهرة، دار المعارف، الطبعة السابعة، ١٩٦٩
٥. د. نميش أسماء , أطروحة , الموشحات والأزجال وأثرها في الأدب الأوروبي القديم : شعر التروبادور أنموذجا, جامعة جيلالي س ليابس , ٢٠١٥ – ٢٠١٦
٦. عدنان اسماعيل الطائي , مقالة الموشحات والأزجال , شبكة جامعة بابل , موقع الكلية , نظام التعليم الالكتروني , مشاهدة المحاضرة , ٢٠١٨/٠٩/٣٠
٧. الأهواني، عبد العزيز : الزجل في الأندلس.- القاهرة، ١٩٦٧.-
٨. عتيق، عبد العزيز : الأدب العربي في الأندلس.- بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٦
٩. د. فالح نصيف الكيلاني , مقالة ميزات الشعر العربي في بلاد الاندلس, صحيفة المثقف , العدد: ٥٠١٧ المصادف: الاحد ٣١ - ٠٥ - ٢٠٢٠م (http://www.almothaqaf.com/)
١٠. عباسة محمد, اللهجات في الموشحات والأزجال الأندلسية, مجلة إنسانيات, (https://journals.openedition.org/insaniyat/٨٥٤٩?lang=ar)